مِنْ بَلاغَةِ أسَالِيبِ الاحتِجَاجِ العَقليِّ

فِي الحَدِيثِ النَّبَويِّ

(القِيَاسِ والتَّمثِيلِ أُنْمُوذَجًا)

إعداد

أسماء ريحان بيومي

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالقاهرة

مِنْ بَلاغَةِ أسَالِيبِ الاحتِجَاجِ العَقليِّ فِي الحَدِيثِ النَّبَويِّ (القِيَاسِ والتَّمثِيلِ أُنْمُوذَجًا)

أسماء ريحان بيومي السيد
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر، القاهرة، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: asmaaRihan.el20@azhar.edu.eg

الملخص:
يهدف هذا البحث إلى إثبات أنَّ النبي–ﷺ– استطاع أن يصل إلى قلوب المخاطبين بالرفق واللين، وإلى عقولهم بالإقناع والمنطق القويم، من خلالِ تقريب الأحكَامِ بِذكرِ نظائرِهَا وَأسبابِهَا، وَضربِ الأمثَالِ، فأقامَ النبي–ﷺ– دعوته وتعليمه على الإقناعِ العقليِّ، مستخدمًا لذلك أساليب متعددة، تنسجم مع أصناف المدعوين وواقعهم وأفهامهم، ومن تلك الأساليب: القياس والتمثيل، باعتبارهما من خاصة العقل؛ لأجل ذلك فقد عمدت إلى اختيار هذين الأسلوبين لتسليط الضوء عليهما، وإظهار بلاغتهما في كلام النبي–ﷺ–؛ لما لهما من دورٍ عظيمٍ، وأهميةٍ بالغةٍ، تؤدي في النهاية إلى الاقتناعِ، وتقريرِ المعاني، وتمكينِها في النفوسِ.
وقد اتبعت في هذا البحث منهج الاصطفاء في جمع الأحاديث ، ومنهج التحليل الكلي في المعالجة؛ من خلال تحليل الأحاديث– محل الدراسة– تحليلا بلاغيًّا، مبرزةً خصائص تركيبها، وبيان صورها، وسمات ألفاظها.
ومن نتائج هذا البحث: أنَّ القياسَ والتمثيلَ من أساليبِ الاحتجاجِ العقليِّ غير المباشرة في الوصول إلى المراد، ويهدفان إلى الإقناع، وإلى بيان الحقيقة، وتعديل السلوك، وتغيير المفاهيم، وترسيخ القيم الإيمانية.
رفق النبي–ﷺ– بالمتلقين، ورحمته وتلطفه في الخطاب معهم، رغم امتلاكه السلطة التشريعية في حملهم على الإذعان بالأساليب الطلبية المباشرة، إلا أنه اعتمد القياس والتمثيل أسلوبًا إقناعيًّا؛ لتقبل النفس البشرية له، مما يحملهم على سرعة الامتثال والانقياد.

الكلمات المفتاحية: بلاغة– الاحتجاج العقلي – القياس– التمثيل – الحديث النبوي .

From the eloquence of the methods of mental argument in the hadith of the Prophet (measurement and representation as a model)

Asmaa Rihan Bayoumi Al-Sayed
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Cairo, Arab Republic of Egypt.
Email: asmaaRihan.el20@azhar.edu.eg

Abstract:
This research aims to prove that the Prophet (PBUH) was able to reach the hearts of the addressees with kindness and leniency, and to their minds with persuasion and correct logic, by approximating the rulings by mentioning their counterparts and their causes, and multiplying the intellect using the methods of the Prophet. The invited guests, their reality and their understanding, and among those methods: analogy and representation, as they are characteristic of the mind; For this reason, I chose these two methods to shed light on them, and to show their eloquence in the words of the Prophet because of their great role and great importance, which ultimately leads to conviction, determination of meanings, and empowerment of souls. I have followed in this research the method of selection in collecting hadiths, and the method of total analysis in treatment; Through the analysis of the hadiths - the subject of the study - a rhetorical analysis, highlighting the characteristics of their structure, their images, and the features of their words. Among the results of this research: that analogy and representation are among the indirect methods of mental protest in reaching the goal, and they aim at persuasion, clarifying the truth, modifying behavior, changing concepts, and consolidating faith values. The Prophet's kindness to the recipients, his mercy and kindness in addressing them, despite having the legislative power to force them to submit to direct ordering methods, yet he adopted analogy and representation as a persuasive method; To accept the human soul to him, which leads them to the speed of compliance and submission.

Keywords: Rhetoric - Mental protest - Analogy - Representation - Prophetic hadith.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ الكريمِ الوهَابِ، الذي أنزلَ على عبدهِ الكتابَ، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب، والصَّلاة والسَّلام على مَنْ أرسَلَهُ ربه رَحْمَةً للعَالَمِينَ، وقُدْوةً للعَامِلينَ، ومَحَجَّةً للسَّالِكينَ، وحُجَّةً عَلَى العِبَادِ أجْمَعِينَ، هَدَى بِهِ إلى أقْوَمِ الطُّرُقِ، وأوضَحِ السُّبُلِ، أرسَلَهُ للإيمانِ مُنَاديًا، وللجَنَّةِ دَاعِيًا، وفِي مَرضَاتِهِ سَاعِيًا، وبكلِّ مَعْرُوفٍ آمِرًا، وعَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ نَاهِيًّا، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ، وسلِّم تَسْلِيمًا كَثْيرا.

وبَعْــدُ،،،

فإنَّ كلامَ النبيِّ -ﷺ- هو أجلُّ الكلامِ وأشرفُهُ بعدَ كلامِ الله- عزَّ وجلَّ-، وسنَّته هي المصدرُ الثَّانِي للتشريع؛ فهي" السبيلُ الواضِحُ، والنَّجْمُ اللائح، والقائد النَّاصِحُ، والعلمُ المنصوب، والأممُ المقصود، والغَايةُ في البيانِ، والنهايةُ في البرهانِ، والمَفْزعُ عند الخصَامِ، والقُدوة لجَميعِ الأنَامِ"(١).

والبلاغةُ النبويَّةُ هي أرقى مراتب البلاغة البشرية؛ وذلك لأنها "مِنْ صُنْعِ اللهِ، وما كانَ مِنْ صُنْعِ اللهِ تضيقُ مَوازِينُ الإنسانِ عن وَزْنِهِ، وتَقْصُرُ مَقَايِيسُهُ عن قياسِهِ، فنحنُ لا نُدْرِكُ كُنْهَهُ، وإنَّمَا نُدْرِكُ أثَرَهُ، ونَحْنُ لا نَعْلَمُ إنشاءَهُ، وإنما نعلَمُ خبرَهُ، وهَلْ يُدْرِكُ المَرْءُ من آثَارِ الشمسِ غيرَ الضوءِ والحرارةِ؟، وهل يعلمُ من أسرارِ الرَّوْضِ غيرَ العِطْرِ والنَّضَارةِ؟، وهَلْ يجدُ في نفسِهِ من أغوارِ البحرِ غيرَ الشُّعُورِ بالجلالةِ والروعةِ؟، إنَّ البلاغةَ النَّبويَّةَ هي المثلُ الأعلى للبلاغةِ العربيةِ، وإذا كان كلامُ اللهِ كتابَ البيانِ المُعْجِزِ، فإنَّ كلامَ الرسولِ -ﷺ- سنةُ هذا البيانِ، وإذا كانَ البلاغُ صفةَ كلِّ رسولٍ، فإنَّ البلاغةَ صفةُ محمدٍ -ﷺ- وحدَهُ"(٢).

(١) البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: د/ وداد القاضي، ٦/١، دار صادر – بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(٢) وحي الرسالة، أ/أحمد حسن الزيات ١٠٥/٣، دار الثقافة – بيروت، ط ٦، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

ومما لا شك فيه أن النبي-ﷺ- أوتي من الفصاحة والبلاغة ما لم يؤتَ أحد قبله، فكان يخاطب أناسًا شتى، يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم، فيفتيهم بما يتلاءم مع أحوالهم، وعلى الرغم من تفاوت عقولهم في التفكير، وقدرتهم على الفهم والاستيعاب، استطاع أن يصل إلى قلوبهم بالرفق واللين، وإلى عقولهم بالإقناع والمنطق القويم، من خلال تقريب الْأَحْكَامِ بِذِكْرِ نَظَائِرِهَا وَأَسْبَابِهَا، وَضَرْبِ الْأَمْثَال، فأقام النبي-ﷺ- دعوته وتعليمه على الإقناع العقلي، مستخدمًا لذلك أساليب متعددة، تنسجم مع أصناف المدعوين وواقعهم وأفهامهم، ومن تلك الأساليب: القياس والتمثيل، باعتبارهما من خاصة العقل؛ لأجل ذلك فقد عمدت إلى اختيار هذين الأسلوبين لتسليط الضوء عليهما، وإظهار بلاغتهما في كلام النبي-ﷺ-؛ لما لهما من دورٍ عظيمٍ، وأهميةٍ بالغةٍ، تؤدي في النهاية إلى الاقتناعِ، وتقريرِ المعاني، وتمكينِها في النفوسِ.

وقد قام البحث على منهج الاصطفاء في جمع الأحاديث، ومنهج التحليل الكلي في المعالجة؛ حيث انتقيتُ بعض الأحاديث التي تضمنتها الدراسة، لأتناولها بالتحليل البلاغيّ.

وقد قامت خطةُ البحثِ على مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، ثمَّ الخاتمة، على النحو الآتي:

-**تمهيدٌ:** في معنى الاحتجاج العقلي، والقياس، والتمثيل.

-**المبحثُ الأول:** بَلاغةُ الاحتجاج العقليِّ بأسلوبِ القياس.

-**المبحث الثاني:** بَلاغَةُ الاحتِجَاج العقليِّ بأسلوبِ التمثيل.

-**الخاتمة:** ذكرتُ فيها أهمَّ النتائجِ التي توصَّلْتُ إليها في هذا البحث.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل

د/ أسماء ريحان بيومي

تمهيد

"في معنى الاحتجاج العقلي، والقياس، والتمثيل"

أولا: مفهوم الاحتجاج في اللغة:

يقول ابن فارس: " الْحَاءُ وَالْجِيمُ أُصُولٌ أَرْبَعَةٌ. فَالْأَوَّلُ الْقَصْدُ، وَكُلُّ قَصْدٍ حَجٌّ، ومِنَه الْمَحَجَّةُ، وَهِيَ جَادَّةُ الطَّرِيقِ، وَمُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، يُقَالُ: حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، وَمِنَ الْبَابِ حَجَجْتُ الشَّجَّةَ، وَذَلِكَ إِذَا سَبَرْتَهَا بِالْمِيلِ، لِأَنَّكَ قَصَدْتَ مَعْرِفَةَ قَدْرِهَا، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: الْحِجَّةُ وَهِيَ السَّنَةُ، وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْحِجَاجُ، وَهُوَ الْعَظْمُ الْمُسْتَدِيرُ حَوْلَ الْعَيْنِ، وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ: الْحَجْحَجَةُ النُّكُوصُ"(١).

وقال ابن منظور: " والحُجَّة: البُرْهان؛ وَقِيلَ: الحُجَّة مَا دُوفِعَ بِهِ الْخَصْمُ، والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وَجَمْعُ الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ"(٢).

وقد جاء استعمال الحجة بمعنى الاحتجاج؛ "والحُجَّةُ بالضَّم: مصدرٌ بِمَعْنى الاحْتِجَاجِ والاستدلال"(٣).

"والحُجَّة: الدلالة المبيّنة للمحجّة، أي: المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين"(٤).

وفي الاصطلاح:

قال الجرجاني: "الحجة: ما دلَّ به على صحة الدعوى، وقيل: الحجة والدليل واحد"(١).

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، مادة (حج).

(٢) لسان العرب ، لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، ط٣، دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ، مادة (حجج).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة (حجج)، دار الهدية، د.ت.

(٤) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، صـ٢١٩، ط١، دار القلم الدار الشامية – دمشق بيروت، ١٣١٢هـ.

الاحتجاج العقلي عند علماء البلاغة(٢):

أولا: ورد لفظ الاحتجاج مجردًا من أي وصف عند أبي هلال العسكري في كتابه(الصناعتين)؛ حيث عقد فصلًا بعنوان(الاستشهاد والاحتجاج) ، وعرفه بأنه: "أن تأتى بمعنى، ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته"(٣).

ثانيًا: كما ورد لفظ الاحتجاج موصوفًا بالعقلي عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة)؛ حيث عقد فصلًا بعنوان[الاتّفاق في الأَخْذ والسَّرقة، والاستمداد والاستعانَة]، قائلًا فيه: " ومما هو من هذا الباب، إلاّ أنه مع ذلك احتجاجٌ عَقْليٌّ صحيحٌ، **قولُ المتنبي:**

وَمَا التأنيثُ لاسم الشمسِ عَيْبٌ * ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال(٤)**

فحقّ هذا أن يكون عنوانَ هذا الجنس، وفي صدر صحيفته، وطِرازًا لديباجته؛ لأنه دفعٌ لنقص، وإبطالٌ له، من حيث يَشْهَدُ العقل للحجّة التي نطق بها بالصّحة"(٥).

ثالثًا: ورد لفظ الاحتجاج موصوفًا بالنظري(الاحتجاج النظري) عند ابن النقيب، وجعله من أقسام فنون المعاني؛ حيث يقول: "وبعض أهل هذا الشأن يسميه المذهب الكلامي، وهو: أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضرب من

=

(١) التعريفات، علي بن محمد بن الشريف الجرجاني، صـ٨٢، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) ينظر: بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، د/ زينب عبد اللطيف كردي، صـ١٧ وما بعدها، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٣٠-١٤٣١هـ.

(٣) كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، لأبي هلال العسكري، صـ٤١٦، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.

(٤) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي؛ لأبي العلاء المعري، ٥١/٣، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، ط٢، دار المعارف، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٥) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، صـ٣٤٧ وما بعدها، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

المعقول، ومنه قوله – تعالى–: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[يس: ٨١]، وقيل: إنَّ الاحتجاج أن يخرج الكلام على طريقة الجدل"(١).

ومن خلال ما سبق، فقد استنبطت إحدى الباحثات تعريفًا للاحتجاج العقلي بأنه " أسلوب للمناقشة والإقناع، فيه ردٌّ على المخالف، أو إرشادٌ له بحجّة عقليّة وجدانيّة، تقطع عناده.

وبهذا يشمل التعريف الاحتجاج بالردّ من داخل القضيّة، أو من خارجها، والاستدلال بالإرشاد بذكر دليل يدعم القضيّة من خارجها"(٢).

القيمة البلاغية للاحتجاج العقلي:

ذكر بعض العلماء أن الاحتجاج العقلي وجهٌ من وجوه البلاغة العالية، وذلك بعض من أقوالهم التي تدل على قيمته البلاغية:

– سئل ابن المقفع ما البلاغة؟، قال: البلاغة "اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج..."(٣).

– ويقول الإمام عبد القاهر: "إنَّ التوق إلى أن تقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يُشكل، وحلّ ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجّة، واستظهارًا على الشبهة، واستبانة للدليل، وتبيُّنًا للسبيل؛ شيء في سُوس العقل، وفي طباع النفس"(٤).

---

(١) مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، لجمال الدين ابن النقيب، تحقيق: د/ زكريا سعيد علي، صـ٢٨٥، مكتبة الخانجي – القاهرة، د.ت.

(٢) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، صـ٢٥.

(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١١٤، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٤) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، صـ٣٤، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط٣، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

وبهذا يكون(الاحتجاج العقلي) ضربًا من ضروب البلاغة العالية، وكونه موصوفًا(بالعقلي) دليلٌ على أنه يخاطب العقل بالحجج الساطعة، والبراهين المقنعة؛ مما يدعو إلى التسليم والتقرير والإذعان بالحقائق.

ثانيًا: تعريفُ القياسِ:

القياس لغة: التقدير، " قِسْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ أَقِيسُ قَيْسًا وقِياسًا فَانْقَاسَ، إذا قدَّرته عَلَى مِثَالِهِ"(١).

وفي الاصطلاح: عرفه الجرجاني بقوله: " قول مؤلَّف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر"(٢).

وعند الأصوليين: هو "حملُ فرعٍ على أصلٍ في بعضِ أحكامِهِ بمعنًى يجمعُ بينهما"(٣).

وعرَّفه ابن تيمية بأنه: "اسمٌ جامعٌ لكلّ دليلٍ عقلي، فإن العقلَ من شأنِه أن يعتبر الأشياءَ بأمثالِها، وأضدادِها، وخلافاتِها"(٤).

"والقياس من الحجج، وهو أحد طرق الاستدلال غير المباشر، وأقومها إنتاجًا"(٥).

ثالثًا: تعريفُ التمثيلِ:

التمثيل: " تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما"(٦).

---

(١) اللسان، مادة (قوس).

(٢) التعريفات، صـ١٨١.

(٣) اللمع في أصول الفقه، لأبي إسحاق الشيرازي، صـ٩٦، ط٢، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٤) تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل، لابن تيمية، ١٠٥/١، تحقيق: علي بن محمد العمران – محمد عزير شمس، ط١، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ.

(٥) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، صـ٢٧٧، ط٤، دار القلم-دمشق، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

(٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ٢٧٠/٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

ويعرفه ابن سنان بقوله: "وأما الاستدلال بالتمثيل فأن يرد في الكلام معنى يدل على صحته بذكر مثال له"(١).

وقيل:" هو عملية فكرية تقوم على تشبيه أمرٍ بآخر في العلة التي كانت هي السبب في حدوث ظاهرة من ظواهره، واعتبار هذا الشبه كافيًا لقياس الأمر على الآخر في أن له مثل ظاهرته"(٢).

وللتمثيل أربعة أركان:

الركن الأول: الأصل، وهو الممثَّل به، أو المشبَّه به.

الركن الثاني: الفرع، وهو الممثّل، أو المشبَّه.

الركن الثالث: العلة الجامعة التي هي سبب التمثيل.

الركن الرابع: الظاهرة، أو الحكم الذي في الأصل، ويعمّم على الفرع بدليل التمثيل(٣).

وبناء على ما سبق، فإنَّ كلًّا من الاحتجاج العقلي بالقياس والتمثيل هو قياس حالة مشاهدة على حالة غائبةٍ لاشتراكٍ بينهما في حكمٍ أو صفةٍ، غير أن الاحتجاج بالتمثيل مبنيٌّ على التخيُّل، وأن الجامع بين الطرفين المشبهين هيئة مركبة منتزعة من عدة أمور أو صفات.

هذا، والمتتبع للسنة النبويَّة يجد أحاديث كثيرة ساقها النبي-ﷺ-، وعرضها بأسلوب القياس والتمثيل؛ للوصول بالمخاطبين إلى الإقناع العقلي والتأثير القلبي، وسوف أتناول- بمشيئة الله- في هذا البحث نموذجين لكلٍّ من القياس والتمثيل بالتحليل البلاغي أنموذجًا على ذلك.

***

(١) سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، صـ٢٧٥، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) ضوابط المعرفة، صـ٢٨٨.

(٣) السابق ، صـ٢٩١.

المبحث الأول

"بلاغةُ الاحتجاجِ العقليِّ بأسلوبِ القياسِ"

وفيه حديثان: الحديث الأول: " لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ"

نصُّ الحديثِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ -ﷺ-، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟»، قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟(١)»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟»، قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ»(٢).

المعنى العام للحديث:

يتناول هذا الحديث مشكلة من المشكلات الشائكة التي قد تؤدي إلى هدم الأسرة، وتفريق شملها؛ بسبب سوء الظن والشك والارتياب، ذلك أنَّ أعرابيًّا تملكه الشك والحيرة عندما ولدت له زوجته غلامًا لونه أسود، وهو وزوجته ليس فيهم سواد، فاستنكر الأعرابي هذا الغلام بقلبه، فأسرع إلى رسول الله-ﷺ- شاكيًّا له ما أصابه من استغرابٍ واستنكارٍ لهذا الغلام، فما كان من رسول الله-ﷺ- إلا أنَّه قابلَ هذه القضية التي تتعلق بالنسب والأعراض بتهدئة هذا الأعرابي وتهيئته، من خلال إلقاء بعض الأسئلة عليه، مما يتعلق بما يملكه من إبلٍ، قياسًا على حالته؛ ليصل إلى درجة الاقتناع العقلي بأن هذا الغلام منه.

(١) الأَوْرَقُ :الذي لونه بين السواد والغُبْرَة؛ ومنه قيل للرماد أَوْرَقُ ، والأَوْرَقُ من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد. لسان العرب (ورق).

(٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، ١٤٢٢هـ، [كتاب: الطلاق، باب: إذا عرض بنفي الولد] حديث رقم[٥٣٠٥]، وصحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د.ت،[كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل] حديث رقم [١٥٠٠].

"وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْوَلَدَ يَلْحَقُ الزَّوْجَ، وإِنْ خَالَفَ لَوْنُهُ لَوْنَهُ، حَتَّى لَوْ كَانَ الْأَبُ أَبْيَضَ وَالْوَلَدُ أَسْوَدَ، أَوْ عَكْسُهُ، لَحِقَهُ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ نَفْيُهُ بِمُجَرَّدِ الْمُخَالَفَةِ فِي اللَّوْنِ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الزَّوْجَانِ أَبْيَضَيْنِ، فجاء الولد أسود أو عكسه؛ لاحتمال أنه نَزَعَهُ عِرْقٌ مِنْ أَسْلَافِهِ"(١).

<u>التحليل البلاغي للحديث:</u>

هذا الحديث قائمٌ على حوارٍ دارَ بين رسول الله-ﷺ- وأعرابيّ؛ حيث استهله الأخير بإلقاء الخبر على مسمع رسول الله-ﷺ-، قائلًا له: " **يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ**"، هكذا دفعة واحدة، دون مقدماتٍ أو تصريحٍ بما في نفسه، ولكنه عرَّض به؛ اعتمادًا على فطنةِ رسول الله-ﷺ-، ومراعاة لحالته النفسية التي لا يستطع معها الإطناب في مثل هذا الأمر، ولك أن تتخيّل حال هذا الأعرابي كأي رجلٍ ظلَّ يترقب قدوم مولوده بكلّ حبٍّ وتلهفٍ، وحينما جاءت هذه اللحظة، وأبصر مولوده، انطفأت فرحته، وتغيّر وجهه، وتشتت عقله، وذلك عندما رأى لونه مخالفًا له ولأمه، فأخذت الشكوك والوساوس تعمل عملها في نفسه وعقله، وبدأ سيلٌ من الأسئلة يهطل على عقله، هل يمكن أن يكون حدث كذا؟!، هل يمكن كذا؟!، كل هذه الأسئلة وغيرها ظلت تزاحم عقله، ولكن على خطورتها وأثرها السيء على نفسه بقيت حبيسة فكره، ولم تَقُدْه إلى ارتكاب شرٍّ مع زوجته، وإنما قادته إلى معلم البشرية، وطبيب القلوب، سيدنا رسول الله-ﷺ-؛ ليجد جوابًا لما يدور في خلده، ويشفي ألم قلبه، وكل هذه المعاني نلمحها في نداء الأعرابي لرسول الله بنداء البعيد الكامن في قوله: "**يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ**"، فهو يستغيث برسول الله-ﷺ-، مما يجد في نفسه وقلبه من شكٍّ وحيرةٍ، علاوة على ما يحمله النداء من بث شكواه وحزنه لرسول الله-ﷺ-.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٣٩٢م، ١٠/١٣٤.

وفي قول الأعرابي: " **وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ**" تعريضٌ بزوجته بالقذف؛ لأنه أبيض، وهي بيضاء، فمن أين جاء سواد الغلام؟!.

فأدرك النبي–ﷺ– أن المقام مقام اتهامٍ لزوجة الأعرابي في عِرضها، وادعاءٍ وإنكارٍ عليها، وهذا لا يجدي معه جوابٌ قاطعٌ بالتصديق أو التكذيب، وإنما الأمر يحتاج إلى ترتيب عقليّ، وواقع ملموس ومُشاهَد يُنظر بالعين؛ للتوصلِ إلى الحقيقة باقتناعٍ تامٍّ، لذلك ألقى النبي–ﷺ– عليه هذا السؤال: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**»؛ لـ "يهيئه نفسيًّا لمناقشة الموضوع بهدوءٍ وتعقّل، بعيدًا عن الانفعالات التي تغلق نافذة الفكرة، وتؤدي إلى الخطأ في الحكم"(١).

وبالتأمل في هذا البيان العالي من النَّبيِّ –ﷺ– نجد أنه استخدم أسلوب الاستفهام؛ تنبيهًا للأعرابي، واستدراجًا له، وإيقاظًا لكوامن الفكر عنده، وليكون هذا الأسلوب الطلبي كالمقدمة والتوطئة التي يتوصل بها إلى المراد، ويبدأ عقل الأعرابي بتفهُّمِ الآتي رويدًا رويدًا؛ مما يُعطي له مجالًا فسيحًا للإقرارِ والاقتناعِ، وهو تقديمٌ وتمهيدٌ يُعِينُ على تلقِّي الحقيقة بدافعٍ من الطمأنينة والارتياحِ.

وقد استخدم أداةَ الاستفهامِ(هل) التي يُطْلَبُ بها التصديقُ، ويُرجَى من ورائِها جوابٌ، ومعلومٌ أنَّ المقصودَ بالتصديقِ هو الحُكمُ بالثبوتِ أو الانتفاءِ؛ ولذلك أجاب الأعرابي بعد أن هدأت نفسه بحرفِ الجوابِ (نعم)؛ إقرارًا وتأكيدًا من أنه يمتلك إبلًا، ويتعهدها بالعناية والرعاية في الواقع المشاهد المألوف عنده هو لا عند غيره، وهذا ما أفاده الاختصاص من تقديم الجار والمجرور(لك)، في قول الرسول–ﷺ–: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**».

وإنما صدَّق الأعرابي على سؤال رسول الله–ﷺ– بحرفِ الجوابِ(نعم) دون غيرِه، كـ(أجل) مثلًا؛ إذ هو " بِمَعْنَى نَعَمْ"، بل هو " أَحسنُ مِنْ نَعَمْ فِي التَّصْدِيقِ، وَنَعَمْ أَحسن مِنْهُ فِي الِاسْتِفْهَامِ...، و(أَجَلْ): تَصْدِيقٌ

(١) بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، د/ ناصر راضي الزهري، صـ٢٤٩، ط١، دار البصائر، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.

لِخَبَرٍ يُخْبِرُكَ بِهِ صَاحِبُكَ فَيَقُولُ فَعَلَ ذَلِكَ فَتَصْدُقُهُ بِقَوْلِكَ لَهُ أَجَلْ، وأَما (نعَمْ) فَهُوَ جَوَابُ الْمُسْتَفْهِمِ بِكَلَامٍ لَا جَحْد فِيهِ، تَقُولُ لَهُ: هَلْ صَلَّيْتَ؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَهُوَ جَوَابُ الْمُسْتَفْهِمِ"(١).

وفي سؤاله-ﷺ- الأعرابيَّ عن الإبلِ خاصةً؛ مراعاة لبيئته التي يعيش فيها، وملاءمة للمألوف منها، علاوة على ما في خلقها وطبائعها من آياتٍ تدعو إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ، كما قالَ – عزَّ وجلَّ-: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

ثم بعد أن أقرَّ الأعرابي باقتنائه إبلًا، ألقى عليه النبي-ﷺ- سؤالًا ثانيًا، قائلًا له: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**»؛ تمهيدًا لعقل الأعرابي لتقبُّل الحكم الذي يلقى عليه، وسبب سؤاله-ﷺ-عن ألوانها؛ "لأن الْحَيَوَانَات تجْرِي طباع بَعْضهَا على مشاكلة بعض فِي اللَّوْن والخلقة، ثمَّ قد ينْدر مِنْهَا الشَّيْء لعَارض، فَكَذَلِك الْآدَمِيُّ، يخْتَلف بِحَسب نَوَادِر الطباع، ونوادر الْعُرُوق"(٢).

فلما أجابه الأعرابي بقوله: "**حُمْرٌ**" إقرارًا منه بما هو مشاهد عنده، ألقى عليه النبي-ﷺ- سؤالًا ثالثًا، قائلًا له: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**»، لطلب تصديق وجود إبلٍ ورقاء أو لا، وسؤال النبي -ﷺ- هذا تقريبٌ شديدٌ للحقيقة التي يبحث عنها الأعرابي، والأورق من الإبل: الذي في لونه سواد، فكان جواب الأعرابي بالإيجاب، قائلًا: "نعم"، مقرًّا بوجود إبلٍ سوداء مخالفة للون الإبل الحمر.

وفي التدرج بالسؤال ما يتيح للأعرابي فرصة التفكير، والمشاركة الذهنية؛ ليصل إلى حقيقة القضية بطريقة منطقية عن طريق قياس حالته على حالة إبله.

---

(١) اللسان، مادة (أجل).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني ٢٢/٢٤، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وعندما أقرّ الأعرابيُّ بوجود إبلٍ ورقاء، يأتي سؤال النبي-ﷺ- الجوهري، قائلًا له: «**فَأَنَّى ذَلِكَ؟**» أي: من أين جاءها اللون المخالف؟، فالاستفهام هنا عن السبب الذي نجم عنه هذا اللون، وتكمن بلاغة هذا السؤال في أنه" تنبيهٌ إلى حقيقة الموضوع، ولفتٌ إلى التصور الصحيح لأصل المسألة، وبلوغ بالاستدراج بالاستفهام إلى غايته المنشودة، أضف إلى ذلك كله ما تميّز به هذا الأسلوب من قدرة على استدراج المخاطب نحو وضع الحل بنفسه، ومساعدته على الخلاص من تردده وشكه"(١).

ولعلم الأعرابي وخبرته بأحوال الإبل وصفاتها، وأن هذه الصفات قد تمتد وتتوارث إلى غيرها؛ جاء جوابه على النبي-ﷺ- في غاية الإحكام العقلي المقنع، قائلًا: "**لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ**"، فهذه الإجابة هي مصب المعنى، وهي اللغز في حل شبهة وإشكال الأعرابي، أي: لعل هذه الإبل السوداء توارثت هذا اللون من عرقٍ قديم، فظهر هذا اللون على تلك السلالة والذرية.

و"الْمُرَادُ بِالْعِرْقِ هنا: الْأَصْلُ مِنَ النَّسَبِ؛ تَشْبِيهًا بِعِرْقِ الثَّمَرَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُعَرَّقٌ فِي النَّسَبِ وَالْحَسَبِ، وَفِي اللُّؤْمِ وَالْكَرَمِ، وَمَعْنَى نَزَعَهُ: أَشْبَهَهُ، وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ، وَأَظْهَرَ لَوْنَهُ عَلَيْهِ، وَأَصْلُ النَّزْعِ :الْجَذْبُ، فَكَأَنَّهُ جَذَبَهُ إِلَيْهِ لِشَبَهِهِ"(٢).

وبناء على هذا المعنى، يكون في قول الأعرابي: "نزعه عرق" استعارة؛ حيث شبه الأصل من النسب بالعرق، بجامع الامتداد في كلٍّ، ثم حذف المشبه، واستعار لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ويمكن أن نقول: إنَّ في إسناد الفعل(نزع) إلى (عرق) استعارة تبعية في الفعل؛ حيث شبه الاكتساب بالنزع، بجامع الأخذ في كلٍّ، ثم استعير النزع للاكتساب، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

(١) بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع، صـ٢٥٠.
(٢) شرح النووي على مسلم١٠/١٣٣.

وسواء كان هذا أو ذاك، فإنَّ الاستعارة تصوّر عملية الوراثة بين الأفراد في صورة مشاهدة ملموسة في الواقع، فهذه الإجابة على وجازتها أصابت كبد الحقيقة، فمن المعلوم أن اللفظ متى قلَّ ودقَّ كان الانتباه إليه أقوى وأشد؛ لأن" العبارة كلما كانت أجزاؤها أبسط تركيبًا، وأتقن ترتيبًا، وصادفت موضعها، وطابقت حال سامعها؛ أدت فاعليتها في نفس السامعين، ووصلت إلى المقصود منها "(١).

فبعد أن أصدرَ الأعرابيُّ حكمه على الإبل بهذا الجواب، قال له- ﷺ-:«فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ»؛ تكرارًا لما أقرّه الأعرابي على حال إبله؛ ليكون حجة مقنعة له، ولكن النبي-ﷺ- استعمل القياس المبني على التشبيه الضمني، لمشابهة حالة امرأته وإتيانها بمولود مخالف للون والديه، بحال الإبل الحمر وإتيانها بنتاج مخالف للونها؛ لاكتسابها صفات وراثية من عرق قديم، حتى يقتنع الأعرابي تمام الاقتناع، ويكون هو من توصل إلى الحقيقة من تلقاء نفسه دون أن يمليها عليه؛ لذلك تدرج النبي -ﷺ- معه في الحوار، ولم يُجِبْهُ مباشرة؛ حتى لا يراوده الشك مرة أخرى، فاستخدم أسلوب القياس العقلي؛ ليقتلع كل ما في نفسه من شك وريبة، دون تردد.

فبهذا الجواب من النبي-ﷺ-: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ**» تتجلى حكمته-ﷺ- في إزالة الشك من نفس الأعرابي، وإقناعه بنسبة الغلام إليه؛ حتى تطمئن نفسه، ويسكن قلبه؛ حيث جعل الاحتجاج العقلي القائم على الحوار بأسلوب الاستفهام لاستدراج الأعرابي، والأخذ بيده للوصول إلى الحقيقة، واتخذ المنطق المبني على القياس الممثل في التشبيه الضمني وسيلة حيوية لإحالة الأعرابي إلى الدليل المحس المشاهد، وتركه يحتكم إلى نفسه؛ ليستخلص الحكم الصحيح المقنع الذي لا شك فيه؛ لئلا يشعر بأن شيئًا فُرِضَ عليه.

(١)الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب العربية، د/محمود السيد شيخون، صـ١١٠، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، ١٩٨٠م.

فكان هذا الحوار مفحِمًا للرجل عن طريق الموازنة والقياس، وهذه قدرة عظيمة وهبها النبي-ﷺ- في توظيف الاحتجاج العقلي بالقياس، وتطويع المعطيات، وحسن استخدامها؛ للوصول إلى المطلوب بحجة مقنعة، ودليل قاطع، وبرهان ساطع(١).

"وَفِي الْحَدِيثِ ضَرْبُ الْمَثَلِ، وَتَشْبِيهُ الْمَجْهُولِ بِالْمَعْلُومِ تَقْرِيبًا لِفَهْمِ السَّائِلِ، وَاسْتُدِلَّ بِهِ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ بِالْقِيَاسِ، وَقَالَ ابن الْعَرَبِيِّ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْقِيَاسِ، وَالِاعْتِبَارِ بالنظير، وفيه الاحتياط للأنساب، وإلحاقها بمجرد الإمكان، وَفِيه: الزّجر عَن تَحْقِيق ظن السوء، وَتقدم حكم الْفراش على اعْتِبَار المشابهة"(٢).

وهكذا فقد تجلت البلاغة النبوية في استخدام القياسِ كأسلوبِ احتجاجٍ عقليٍّ، واتخاذِهِ وسيلةً مقنعةً للمخاطَبِ؛ بحيثُ يتوصَّلُ من خلالِهِ إلى النطقِ بالحقيقةِ والإقرارِ بها من تلقاء نفسه، كما تآزر مع القياس في الإقناع الاستدراج بأسلوب الاستفهام، من خلال توجيهِ الخطاب إلى السائلِ، وتحويلِ السؤال عليه.

***

(١) ينظر: الحوار في الحديث النبوي، تراكيبه وصوره، د/ عيد محمد شبايك، صـ١٣٧، ط١، دار حراء- القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٤٤٤/٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م، شرح النووي على مسلم، ١٣٤/١٠.

الحديث الآخر: " أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ"

نص الحديث:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ-، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ: «اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ»(١).

المعنى العام للحديث:

يتناول هذا الحديثُ الشريفُ مسألةً من المسائل المتعلقة بالنذر؛ حيث نذرت امرأة أن تحج بيت الله الحرام، ولكن أجلها وفاها قبل أن تفي بنذرها، فجاءت ابنتها إلى رسول الله-ﷺ- تسأله عن جواز حجها عن أمها، فأجابها النبي-ﷺ- بجواز النيابة بالحج عن أمها، وقاس لها النَّبيُّ -ﷺ- الحجَّ الَّذي عليها بالدَّينِ، وهو واجبُ القضاءِ؛ لأنَّه حقٌّ للآدميِّين، والحجُّ حقٌّ لله -تعالى-، فكان قضاءُ حقِّ الله- تعالى- أَوْلى مِن قضاءِ حقِّ الآدميِّين؛ فالحجُّ الَّذي وجَب في الذِّمَّةِ لا يسقُطُ سوى بقضائِه، كما لا يسقُطُ الدَّينُ سوى بالقضاءِ.

التحليل البلاغي للحديث:

إنَّ من كمال البرِّ والطاعة للوالدين، ألا يكون ذلك مقتصرًا على حياتهما، وإنما يستمر ويزيد بعد موتهما؛ من ذلك أن امرأة قد رغبت في إيصال الخير والبر بأمها المتوفاة، حيث جاءت تستفتي رسول الله-ﷺ- في حال أمها التي نذرت أن تحج، ولكنها ماتت قبل أن تؤدي ذلك النذر، هل يجزئ أن تحج عنها؟، وقبل أن تلقي سؤالها ذلك على النبي-ﷺ- قدمت له بتمهيدٍ بين يدي رسول الله-ﷺ-، قائلة: "**إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ**" بأسلوبٍ خبريٍّ طلبيٍّ، وقد جاء هذا الخبرُ على خلافِ مقتضى الظاهرِ؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: مَنْ شَبَّهَ أَصْلًا مَعْلُومًا بِأَصْلٍ مُبَيَّنٍ، قَدْ بَيَّنَ اللَّهُ حُكْمَهُمَا، لِيُفْهِمَ السَّائِلَ] حديث رقم[٧٣١٥].

حيثُ جاء مؤكَّدًا بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ، وليس هذا التوكيدُ راجعًا إلى حالِ المتكلِّمِ ولا إلى حال المخاطَبِ؛ لأنَّ كليْهِمَا غير شاكٍّ ولا مترددٍ في مضمونِ الخبرِ، وإنما هو راجعٌ إلى الجملةِ التي بعدها، ليكون هذا التوكيدُ بمنزلةِ توطئةٍ وأساسٍ متينٍ تُبْنَى عليه الجملةُ اللاحقةُ التي هي مناطُ السؤالِ.

وفي تعريف المسند إليه (أمي) بالإضافة، تأكيدٌ على حرصِ واهتمامِ هذه السائلة، وخوفها على أمها من أن يلحقها إثمٌ؛ لعدم إيفائها بالنذر.

كما عبَّرت السائلة بالمصدر المؤول من(**أنْ**) المصدرية والفعل المضارع المنصوب به (**تَحُجَّ**) في قوله: (**أَنْ تَحُجَّ**) دون المصدر الصريح (الحج)؛ لأن صيغة المضارع باقيةٌ مع التأويلِ بالمصدرِ، دالَّةٌ في ذاتِها على التجدُّدِ والحدوثِ، علاوة على أنَّ المصدرَ المؤوَّل من (أن) والفعل يدلُّ على الاستقبالِ، والمصدر الصريح لا يدلُّ على زمانٍ.

ثم بعد هذه التوطئة والتقدمة من السائلة، قامت بعرض سؤالها على الرسول –ﷺ– قائلة: (**أفأحج عَنْهَا؟**) والفاء هنا عاطفة على محذوف، تقديره: أيصح أن أنوب عن أمي، فأحج عنها؟، والاستفهامُ هنا تصديقيٌّ؛ لأنها تسألُ عن النسبةِ، وهو هنا على حقيقته، من طلبُ حصولِ صورةِ الشيءِ المستفهَمِ عنه في الذهن، فالسائلة أرادتْ بسؤالِها معرفة الحكم في هذه المسألةِ.

وقد جاء جواب النبي–ﷺ– متسمًا بالإيجاز البليغ؛ حيث أقرَّ بالإيجاب على وجوب فريضة الحج نيابة عن أمها، ممثلًا ذلك في جوابه، بقوله: (نعم)، ولكنه لم يقتصر على هذا الرد، بل زاد بقوله:(حجي عنها) تأكيدًا على وجوب قضاء الحج عن أمها، وأنها إذا لم تفعل تكون آثمة، وهذا ما جلّاه فعل الأمر(حجي) الدالّ على الوجوب والإلزام والتكليف.

هذا ولم يكتفِ النبي–ﷺ– بهذا الجواب على السائلة، بل استخدم القياس العقلي، في قوله: «**أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟**» من خلال الموازنة بين حق العباد وحق الله– عزَّ وجلَّ–، المرتكزة على الاستفهام التقريري،؛ لتقتنع السائلة أشد الاقتناع، ويستقرَّ الحكم الشرعي في ذهنها، فـ

"المرأة سألتْهُ عن حكمِ شيءٍ، فلم يكشف لها عنه مباشرة، ولكنه عمد إلى نظيرِهِ وشبهِهِ، وهو دَيْنٌ لمخلوقٍ وقضاؤه، فلما قرَّرها بصحةِ تحمُّلِ الدَّيْنِ عن الميتِ ظهرَ أنَّ في ذلك حكمَ ما سألتْ عنهُ، فنهَجَ نهْجَ التنظيرِ تعليمًا وتأديبًا، فوصفُ الحج بأنَّهُ دينٌ على غرارِ وصْفِ ما على الميتِ من أموالِ الناسِ بأنه دينٌ؛ فيه تنبيهٌ إلى علة صحة قضاء حق الله – عز وجل– من عباداتٍ لزمتْ صاحبَها[1].

فكان في استخدام النبي–ﷺ– للقياس، خيرُ دليلٍ على مدى أهمية هذا الأسلوب في إقناع السائلة، والتأثير فيها، فيتضح لها ما غمض حكمه، وخفي فهمه، فيكون لها من تلك المقايسة معرفةٌ بمسالك الشريعة ومقاصدها، وفقهٌ بمراميها البعيدة.

وقد عبّر بصيغة (أَرَأَيْتِ) وهو استفهامٌ خرج إلى صيغةِ الأمرِ بمعنى (أخبريني)، وكانَ من المُمْكِنِ أنْ يكونَ التعبيرُ النبويُّ بـ(أخبريني) بدلًا من (أَرَأَيْتِ)، ولكنَّهُ عدل عنه إلى التعبيرِ بصيغة(أَرَأَيتِ)؛ لأن التعبير بهذه الصيغة يُحدِثُ نوعًا من التمثيلِ، ونوعًا من الحوارِ المُقْنِعِ؛ فالتعبيرُ بـ(أخبريني) ستكونُ الإجابةُ عنه استخراجَ المخزونِ الذهني للمخاطب، أما (أَرَأَيتِ) فتحمل معنى التعجب؛ لأنَّك تتحدثُ عن خبرٍ معينٍ، ولا تريدُ أن تستثيرَ حاسةَ الرؤيةِ في ذاتِها، ولكنْ تُريدُ أن تجعلَ دائرةَ العجبِ الذي يحتوي عليه مضمونُ الخبرِ كأنَّهُ شيءٌ يستحقُّ أنْ يُعْرضَ للرؤيةِ والتمثيلِ، وحالُ الرؤيةِ يُحْدِثُ هذا النوعَ من التجسيدِ من ناحيةٍ، ويُعطي للمعنى هذه الدلالةَ المجازيَّةَ المجسَّدَةَ من ناحيةٍ أخرى؛ من أجل ذلك فقد كان تعدُّدُ الدلالاتِ هو السببُ في عُدُولِ البيانِ النبويِّ عن التعبيرِ بصيغةِ(أخبريني) إلى هذا التركيبِ الخاصِّ(أَرَأَيْتِ)؛ لأنَّهُ

(١) ينظر: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة – دراسة بيانية ناقدة، د/ محمود توفيق محمد سعد، صـ١١٠، ط١، مطبعة الأمانة، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م.

يتحدَّثُ عن إثراءِ الحواسِّ كلِّها، ما دامتِ الرؤيةُ جزءًا من منهجٍ إقناعيٍّ عقليٍّ(١).

هذا وقد ارتكز القياس على التشبيه الضمني؛ حيث شبه دَيْنَ الله الواجب قضاؤه بدين العباد الواجب سداده، ويتجلى وجه الشبه في وجوب القضاء في كلٍّ.

والاستفهام المرتكز أيضًا على القياس في قول النبي-ﷺ-، فيه حثٌّ على إعمالِ العقلِ في تدبُّرِ المعنى المتمثَّلِ لهُ، حتى إذا أقرَّت السائلة بما أراده الرسولُ -ﷺ- سَهُلَ عليها أن تقيس ذلك على سؤالِها الذي طرحتْهُ؛ لذلك كان جوابها بالإيجاب والإقرار المتمثل في قولها: (نعم).

فكان في قوله -ﷺ- دلالةٌ على "مَشْرُوعِيَّةِ الْقِيَاسِ وَضَرْبِ الْمَثَلِ؛ لِيَكُونَ أَوْضَحَ وَأَوْقَعَ فِي نَفْسِ السَّامِعِ، وَأَقْرَبَ إِلَى سُرْعَةِ فَهْمِهِ، وَتَشْبِيهُ الْمَجْهُولِ حُكْمُهُ بِالْمَعْلُومِ، فَإِنَّهُ دَلَّ أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ عَنْ الْمَيِّتِ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ مُتَقَرِّرًا، وَلِهَذَا حَسُنَ الْإِلْحَاقُ بِهِ"(٢).

ثم بعد أن أقرَّت السائلة، جاء البيان النبوي معبرًا بوجوب قضاء حق الله -تعالى-، بأسلوبٍ بليغٍ عالِي المقام، وذلك في قوله-ﷺ-: «**اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ**» بصيغة الأمر، الدالة على الوجوب والإلزام، مخاطبًا المرأة بخطاب الجميع، ليؤكد على أن هذا الأمر ليس مقتصرًا على السائلة فقط، وإنما هو دلالةٌ راجحةٌ وقرينةٌ واضحةٌ على إرادة تعميم الحكم، والزامه للجميع، وليكون تشريعًا عامًّا لا خاصًّا، وليُعَلِّمُ الأمةَ من خلالِ حالةِ هذه المرأة.

وقد ربط بالفاء السببيَّةِ التي هي نصٌّ في التعليلِ بين الأمر في قوله: **(اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ)**، والسبب في قوله: **(فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ)**، مؤكدًا هذا

(١) ينظر: تأملات في جماليات النص القرآني، د/ أحمد درويش، صـ١٢ وما بعدها، دار نهضة مصر، ٢٠١١م.

(٢) فتح الباري٤/٦٦، وسبل السلام، للصنعاني ١/٦٠٦، دار الحديث، د. ت.

الترابط بـ(إنَّ) التي تنص على التوكيد، وتزيد التعليل قوةً وإيضاحًا؛ ذلك أن "الفاء إذا سبقت (إنَّ)، فإن الدلالة على التعليل تكون أقوى وآكد؛ وذلك لالتقاء رافدَيْن من روافد العلية (الفاء) و (إنَّ)، وكل منهما يمنح التعليل من دلالتِه الوضعيَّةِ عنصرًا دلاليًّا آخرَ غيرَ الذي يُعْطِيه الآخرُ له، فالفاء تُشْرِبُ التعليلَ معنى التعقيب، مثلما تُشْرِبُ (إنَّ) التعليلَ معنى التأكيدِ، فيجمع التعليل المنبعث من (فإنَّ) معنيَيْن: التعقيب، والتأكيد، وهذه الصيغة كثيرةُ الحضورِ في خطاب الشريعةِ كتابًا وسنةً[1].

لذلك كان مجيء (إن) عقب جملة الأمر، ضربًا من ضروب التوثيق والربط بين الجملتين، وترسيخًا لأهمية هذا الخبر في نفس السائلة، ونفوس المسلمين أجمعين، وهو أن قضاء حق الله أولى من قضاء حق الآدميّين.

وهكذا فقد تجلت بلاغة أسلوب القياس العقلي المرتكز بيانه على التشبيه الضمني، والاستفهام التقريري؛ لإقناعِ السائلةِ بوجوبِ قضاء الحج عن أمها المتوفاة؛ حيث تدرج –ﷺ– في الجوابِ للوصولِ بالحكمِ إلى درجةِ اليقينِ في قبولِه، والانقيادِ له، والعملِ بمقتضاه؛ لأنه سلك به طريقَ الإقناعِ، وقرنَهُ بدليلِهِ، وأقامَ الحجةَ عليهِ، وأجراهُ على لسانِ السائلةِ، فكان ذلك أشدَّ تأكيدًا وتقريرًا في قلب السائلة وعقلها.

***

(١) ينظر: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة دراسة بيانية ناقدة، صـ٨٧.

المبحث الثاني

"بلاغةُ الاحتجاجِ العقليِّ بأسلوبِ التمثيلِ"

وفيه حديثان: الحديث الأول: " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ"

نصُّ الحديثِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ؟ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟"، قَالُوا: لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا»(١).

المعنى العام للحديث:

إذا كان قوام الإنسان الجسدي يتطلب الغذاء والشراب لبقائه، فإن قوامه الرَّوحي يتطلب الصَّلاة؛ لنجاته من عذاب ربِّه يوم القيامة، فالصلاة صلة بين العبد وربّه، وأول ما يحاسب عليه في الآخرة، فهي عماد الدين، وأساسه المتين، إذ بالصلاة تزكو النفس، ويتطهر القلب من غفلات الهوى، وأدران الخطايا، ففي هذا الحديث الشريف يُصوِّر النبي-ﷺ- لأصحابه-من خلالِ حوارٍ شيقٍ ماتعٍ- عِظَمَ فضل الصلوات المكتوبات، وأثرها في محو الذنوب، بنهرٍ يغتسل فيه الإنسان كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ؛ لإزالة الأدران والقاذورات، فلا يبقى على جسده شيءٌ، كذلك الصلوات تطهر العبد من الذنوب والمعاصي بالمحافظة على أدائها في أوقاتها.

التحليل البلاغي للحديث:

للنبي-ﷺ- قدرةٌ عاليةٌ على الإقناعِ والتأثيرِ في المخاطبينَ، وإقبالهم على الطاعاتِ بنفسٍ سمحةٍ، وقلبٍ توَّاقٍ إليها، وهذا ما فعله -صلوات ربي وسلامه عليه- مع أصحابه من خلال حوارٍ هادئٍ، يقوم على التخييل والتمثيل؛ حيث ابتدأه-ﷺ- بسؤالٍ طرحه عليهم، قائلًا لهم: " **أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ**

(١) صحيح البخاري [كتاب: الصلاة ، باب: الصلوات الخمس كفارة]، رقم الحديث[٥٢٨].

نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ" مُصدِّرًا –ﷺ– استفهامَهُ بكلمةِ (أَرَأَيْتَم) ومعناه: أخبروني، والاستفهامُ بهذه الصيغةِ يُلمَحُ فيه من طرفٍ خفيٍّ معنى التنبيهِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى لفتِ الأنظارِ، وتوجيهِ الأذهانِ إلى ما سَيُلْقَى بعدها؛ نظرًا لأنه من الأهمية بمكان، هذا الأسلوبُ الاستفهاميُّ الذي تدخُلُ فيه همزةُ الاستفهامِ على فعلِ الرؤيةِ المُثْبَتِ، ويختصُّ بالاستعمالِ في الحالاتِ العجيبةِ، ولذلك نراهُ يقترنُ بأسلوبِ شرطٍ، وجملةٍ استفهاميةٍ أخرى، وهذا الاقترانُ أضفى على تلك الجملة(أَرَأَيْتُمْ) فخامةً في التركيبِ وفخامةً في المعنى(١).

فالاستفهام بصيغة(أرأيتم) فيه استحضارٌ ذهنيٌّ يسبح بخيال المتلقي إلى تدفق عالٍ في الإحساس والشعور، فيجمع له قلبه وعقله، ويتجه بهما حيث تذهب صورة المعنى، فتقع منهما موقع القبول، ويتهيأ ذهنه لهذه الصورة بلونٍ من التشوق والتطلع يجعله قادرًا على استيعاب الكلام الذي سيلقى عليه، وسرعة التفاعل معه.

إذًا الاستفهامُ بفعلِ الرؤيةِ لم يكن مقصودًا لذاته، بل كان بمنزلة التوطئة والمقدمة لما سيأتي بعده من صورة التمثيل، وذلك لما يحمله من وسائل التنبيه واليقظة، يجمع بها النبي–ﷺ– عقول أصحابه لتلقي ما بعده، والإصغاء إليه، ومن ثَمَّ الاستجابة له، فكان في استهلال الكلام بأسلوب الاستفهام تودد وتلطف يقرب صورة المثل من قلب السامع، يجعله يتعطش للحقيقة المرجوة من ضرب المثل بهذه الطريقة.

ثم يتفاعل مع عطاء الاستفهام بفعل الرؤية في إمعان التصوّر والتخييل، أن تلاه أسلوب الشرط بـ(لو)، ومن المعلوم أنَّ أسلوبَ الشرطِ بـ(لو) يختصُّ

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبد العظيم المطعني، ٣٠٧/١، ط٣، مكتبة وهبة– القاهرة، ١٤٣٢هـ– ٢٠١١م.

بالدخول على الأفعال، وأن يكون كلٌّ من الشرط وجوابه جملتين فعليتين[١]، ولكن الفعل هنا محذوف، والتقدير: (لو ثبت أنَّ نهرًا صفته كذا وكذا)، واعتبرت جملة الاستفهام(يبقى من درنه شيء) قائمة مقام جواب الشرط ، أي: (لو ثبت أن نهرًا صفته كذا وكذا ما بقي من درنه شيء).

فالغرض من الاستفهام هو التقرير، وغالبًا ما يَسْتَخْدِمُ النبيُّ -ﷺ- أسلوبَ الاستفهامِ قصدًا إلى التقرير، وهو من الأساليبِ الموجزةِ البليغة، وذلك ما يتفقُ وطبيعةَ الحوارِ، وما فيه من مراجعةٍ ومجاذبةٍ؛ ليكونَ أشدَّ تأثيرًا وإقناعًا، فضلًا عما فيه من تشويقٍ يتعمدُهُ النبيُّ -ﷺ- في بدايةِ الحوارِ، ليظلَّ المخاطبُ مشدودًا بكلِّ فكرِهِ وعواطفِهِ مع قضيَّةِ الحوارِ حتى النهاية[٢].

وعندما نتأمل بلاغة التعبير النبوي العالي في اختيار الألفاظ، نجد أنه استخدم كلمة(نهرًا) وما تحمله من دلالات الخير والعطاء والفيض والجمال الذي لا ينفد في خيال السامع، ولم يقل مثلًا: (حوضًا) أو (بئرًا)، ليدل على اتساعه وكثرته؛ حتى لا يتعلل الرجل بقلة الماء الذي يمنعه من الاغتسال والتطهر على الوجه الأكمل من إتمام النظافة، فهو معين لا ينضب، فقد ورد في حديث آخر صفة هذا النهر؛ حيث قال -ﷺ-: " **«مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ، غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ». قَالَ: «وَمَا يُبْقِي ذَلِكَ مِنَ الدَّرَنِ؟»**[٣]، فوصفه بأنه نهرٌ(جارٍ) مما يدل على نقائه، وعذوبته، وطهره، ثم أتبع هذا الوصف بوصفٍ آخر فقال:(غمرٍ) أي يغمر من دخله، ويُغالبه.

(١) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ: عبد المتعال الصعيدي،١٧٩/١، ط١٧، مكتبة الآداب، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: الحوار في الحديث النبوي، صـ١٦٥.

(٣) صحيح مسلم، [كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الْمَشْيِ إِلَى الصَّلَاةِ تُمْحَى بِهِ الْخَطَايَا، وَتُرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتُ]، رقم[٢٨٤].

وهذه الأوصاف هي ما أوحى به تنكير لفظ (نهرًا) في الحديث محلّ الدراسة، من خواطر تداعب عقل المتلقي من عذوبةٍ، وصفاءٍ، ونقاءٍ، وكثرةِ جريانٍ، وسرعةِ تدفقٍ، ثم إنَّ هذا النهر ليس بمنأى عن الرجل؛ يجد في الوصول إليه عناءً ومشقةً، لإحضار الماء من أجل الاغتسال، وإنما جعل النهر قريب التناول، سهل الوصول، ليس بينه وبينه المغتسل حائل، وذلك بالتصاقه بباب بيته، وهذا ما كشفت عنه الباء الداخلة على لفظ (الباب) في قوله: (بباب أحدكم) التي جعلت الرجل لا يبذل أدنى جهد سوى أنه يفتح باب بيته فقط؛ ليجد ماء النهر يجري من تحت داره، فيحصل على مراده، ويدرك بغيته، ثم بعد كل هذا، أيجد الرجل مشقة في إزالة أدرانه؟!.

كما يُلحظ أنه –ﷺ– أضاف كلمة(أحد) إلى ضمير المخاطبين؛ حتى يستشعر كل فرد ويقع في نفسه أنه هو المقصود، فخطابه–ﷺ– يشمل الجميع، ولا يقتصر على شخص بعينه؛ مما يجعل المخاطبين أكثر انتباهًا وتشوقًا لما سيلقى على أسماعهم.

وبالتأمل في قوله –ﷺ–: (يغتسل) ومجيئه على صيغة المضارع، نرى استحضارًا للصورةِ يدل على تجدُّدِ الحدثِ واستمرارِهِ حينًا بعد حينٍ مع امتداد الزمن، فهو يجعلُ المعنى حاضرًا بين يديْكَ، فكأنك ترى الرجل يغتسل ويبالغ في الاغتسال؛ حتى لا يبقى على جسده شيء من الدرن، فيغادر النهر وهو مطمئن تمام الاطمئنان إلى كمال طهارته ونظافته على أكمل وجه، وهذا ما كشف عنه عطاء التصوير بالتقييد بالحرف(فيه) الذي يفيد الظرفية والوعاء، فقد دلَّ على تمكن ماء النهر من الرجل تمكن الظرف من مظروفه، واحتواه من كل اتجاه، وغمره من كل ناحية.

وقد تفاعل مع عطاء حرف الظرفية في إجلاء هذا المعنى؛ التعبير عن الفعل بصيغة(يفتعل)، ولم يقل: (يغسل) فالبون شاسعٌ بينهما، فالتعبير بـ(يغتسل) فيه معنًى زائدٌ لا يدل عليه التعبير بـ(يغسل)، ذلك أنه يدل على المبالغة في الاغتسال، والإقبال عليه بنشاطٍ وعزمٍ، فهو لا يبغي من وراء الغسل أن يصب الماء على جسده فحسب، وإنما يبالغ في تطهير جسده من

الدرن والوسخ أشد ما يكون، حتى يُمسي والاغتسال ديمومة وعادة له لا تنقطع، فهو يجدد الاغتسال حينًا بعد حين بلا فتورٍ أو كسل.

ثم يأتي التقييد بالظرف والعدد في قوله-ﷺ-: **(كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا)**؛ ليؤكد تتابع الاغتسال وتكراره، ويعطي بُعدًا آخر لمدى المداومة والمواظبة على فعل ذلك؛ مما يجعل الجسم في طُهرٍ ونقاءٍ، ويعطي القدرة على ممارسة الأعمال اليومية بنشاط وحيوية، وكل هذا حري ألا يبقي من الوسخ شيئًا.

ثم بعد أن هيأ رسول الله -ﷺ- أصحابه بهذا المعنى الذى طاف معه القلب والعقل في حالةٍ من الانشراح والصفاء، والطهر والنقاء، استوقفهم-ﷺ- بهذا الاستفهام التقريري المتولد من هذه الحالة، قائلًا: **(مَا تَقُولُ؟ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟)**، والاستفهام في قوله-ﷺ-: (ذلك يبقى من درنه) محذوف الأداة، والاعتماد هنا على النبر الذي يصاحب تلفظ المستفهِم بجملة الاستفهام، وكثيرًا ما تُغْني هذه النغمةُ عن أداةِ الاستفهام حين تُحذف، وتبقى دلالةُ الاستفهامِ حاضرةً باقيةً، كما في قول عمر ابن أبي ربيعة(١):

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا؟، قُلْتُ: بَهْرًا ∴ عَدَدَ النَّجْمِ والْحَصَى والتُّرَابِ

فقد أغنتِ النغمةُ الاستفهاميةُ في قوله: (تحبها) عن أداة الاستفهام، ومع ذلك فقد بقي الاستفهام واضحًا جليًّا، ومفهومًا من البيت، علاوة على أن هذا الحديث قائمٌ على حوارٍ بين السائل والمجيب- ﷺ-، فهو يسأل وينتظر الإجابة، وفي هذا غنًى عن أداة الاستفهام وتقديرها، فسياقُ الحديثِ ونغمتُهُ الصوتيةُ فيه الدلالة الكافية على هذا الاستفهام(٢).

وبما أنَّ إذهاب النهر للدرن أمرٌ مسلَّم به، لا يختلف عليه أحد، كان جواب الصحابة بكل اقتناعٍ: (لا يبقي من درنه شيء)، وفي فائدة إقرار

(١) ينظر: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، محمد محيي الدين عبد الحميد، صـ٤٢٣، ط١، مطبعة السعادة- مصر، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.

(٢) ينظر: الاستفهام في الصحيحين خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية، د/عبد العزيز بن صالح العمار، صـ٥٩، ط١، الرياض، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

الصحابة" **مُبَالَغَةٌ فِي نَفْيِ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْتَصِرُوا فِي الْجَوابِ على لَا، بل أعادوا اللَّفْظ تَأْكِيدًا**"(١).

ثم يأتي مركز الدلالة، ومصبُّ المعنى بارزًا في الصورة التمثيليّة الكائنةِ في قوله –ﷺ–: «**فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا**»، و" **للرسول** –ﷺ– **قدرةٌ عجيبةٌ على التشبيه والتمثيل، وإرسال الحكمة، وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل؛ لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجع ما يكون التعليم إذا كان عن طريق التمثيل**"(٢).

فالتمثيل بصيغة(مثل) علامة على الاحتجاج بأمور لم يكن الإخبار المباشر بها كافيًا في إقناع المتلقي، فلم يكن للعقل أمام هذه الصورة التمثيلية إلا الاقتناع وسرعة الامتثال، فهل يُعقل أن يسمع إنسان مثل هذا الفضل العظيم، والثواب الجزيل، ويفوّته؟!.

فكان في التمثيل بهذه الصورة الرائعة الرائقة، العالية في البيان، دليلٌ على أهمية وفضل الصَّلاة، وأنها تحط الخطايا عن العبد، وذلك في صورة مرئية لشيء معنويّ، فالتمثيل قرَّب مشهد محو الخطايا غير المرئي، بمشهد الاغتسال في النهر المدرك بالعقل، فكان الاحتجاج بالتمثيل لتأكيد المعنى، وتقريره، وزيادة تثبيته، كما أنه أحدث في المتلقي نشاطًا، وتشويقًا، وترغيبًا في الاستدامة على أداء الصلوات في أوقاتها؛ مما يحقق التأثير والاقتناع.

أي: فإذا كان هذا الحال والشأن في إزالة الدرن عند الاغتسال من النهر، كذلك الحال بالنسبة للصلاة إذا تحققت فيها هذه العوامل الكائنة في المشبه به، لا يبقي الله شيئًا من الذنوب والمعاصي إلا محاها، فالصلاة سهلة ميسورة، لمن أراد أن يتطهر من ذنوبه، ويتقرب إلى ربه، فكما أن النهر لا يكون نهرًا إلا بوجود الماء فيه، فكذلك لا يصح إسلام المرء إلا بالصلاة، وكما

(١) فتح الباري، لابن حجر، ١١/٢.

(٢) وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص، أحمد حسن الزيات ، ١١٥/٣، ط٦، مطبعة الرسالة – مكتبة نهضة مصر بالفجالة ،١٩٦٣م .

أن الماء أساس النهر وعموده، فالصلاة عماد الدين وقوامه، فيتحتم على العبد أن يبادر إلى أداء الصلاة فور دخول وقتها، وألا يشغله عنها شاغل مهما كان، وأن يقبل عليها بجوارحه وقلبه إقبال الخاشع، الراجي مغفرة ربه ورضوانه، معظمًا شعائرها، مقيمًا أركانها، مداومًا عليها، لا يتكاسل عنها؛ حتى يتحقق مطلوبه، وينال مراده من تكفير ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر، يؤكد هذا مجيء لفظ (الخطايا) جمعًا، فذنوب الإنسان مهما كثرت وعظمت، فإن المواظبة على الصلوات الخمس، وعلى أدائها بحقٍّ، تمحوها وتغفرها، وفي هذا دلالة واضحة على عظيم فضل الصلاة، فجزاء مغفرة الخطايا من جنس العمل وهو (الصلاة).

ووجه التمثيل بين الحالتين" أَنَّ الْمَرْءَ كَمَا يَتَدَنَّسُ بِالْأَقْذَارِ الْمَحْسُوسَةِ فِي بَدَنِهِ، وَثِيَابِهِ، وَيُطَهِّرُهُ الْمَاءُ الْكَثِيرُ، فَكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ تُطَهِّرُ الْعَبْدَ عَنْ أَقْذَارِ الذُّنُوبِ، حَتَّى لَا تُبْقِي لَهُ ذَنْبًا إِلَّا أَسْقَطَتْهُ"(١).

والْفَاء في قوله-ﷺ-: (فذلك) واقعة فِي جَوَاب شَرط مَحْذُوف، تقديره: إِذا أقررتم ذَلِك وَصَحَّ عنْدكُمْ فَهُوَ مثل الصَّلَوَات الخمس(٢).

وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على مكانة الصلاة ومنزلتها عند الله- عزَّ وجلَّ، حيث فُرضت في السماء، عندما استدعى الحبيبُ حبيبَهُ، وعَرَجَ به إلى السماوات العلى، حتى كان في حضرته القدسيَّة؛ ليخاطبه مشافهةً بهذا الأمر المهم، وبتلك الفريضة المحبوبة ألا وهي الصلاة، فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد، فلا دين لمن لا صلاة له، فقد روى الطبراني في الصغير عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ

(١) فتح الباري٢/١١.
(٢) ينظر: عمدة القاري ٥/١٦.

لَهُ، وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا طُهُورَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ، إِنَّمَا مَوْضِعُ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوْضِعِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»(١).

كما اهتم الكتاب والسنة بأمر الصلاة، والتحذير من تركها، فقد أمر الله رسوله بها، فقال – تعالى-: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كذلك جعلها أساسًا أصيلا من أسس التقوى، تأتي مرتبتها بعد الإيمان بالغيب مباشرة، قال الله – تعالى-: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [البقرة: ٢ –٣].

ويجعلها النبي –ﷺ– الفارق بين المسلم والكافر، فيقول فيما رواه مسلم: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»(٢).

وهكذا فقد بيَّن رسول الله –ﷺ– أهمية الصلاة وفضلها، من خلال الاحتجاج بالتمثيل، فجعل المعقول كالمحسوس، والمعنويّ مشاهدًا منظورًا، وترك أثرًا في القلوب والعقول، فكان ذلك أدعى لمعرفة المخاطبين لعِظَم فضل الصلاة، وجزيل ثوابها، فمن ثَمَّ يكون مواظبتهم عليها؛ رغبةً في الظفر بالمطلوب، من مغفرة الخطايا والذنوب.

***

(١) الروض الداني إلى المعجم الصغير، للطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، رقم(١٦٢)، ط١، المكتب الإسلامي، دار عمار– عمان، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢) صحيح مسلم، [كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْكُفْرِ عَلَى مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ]، رقم[١٣٤].

الحديث الآخر: " مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا"

نص الحديث:

قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا»(١).

المعنى العام للحديث:

في هذا الحديث الشريف يصوِّر النبي-ﷺ- حاله مع أمته بحال رجل أوقد نارًا في البرية، فجعل الفراش والحشرات يقعن فيها؛ لأن هذه هي عادة الفراش والحشرات الصغيرة، إذا أوقد إنسان نارًا في البر، فإنها تأوي إلى هذا الضوء، والرجل يمنعهن الوقوع، وهنَّ يأبين إلا الوقوع فيها، وهكذا النبي-ﷺ- مع أمته، فهو حريصٌ على منع أمته من اتباع الشهوات، والوقوع في المعاصي والمحرمات، ولكنهم يتفلتون من يده ويقعون فيها.

"قَالَ النَّوَوِيُّ: مَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ -ﷺ- شَبَّهَ الْمُخَالِفِينَ لَهُ بِالْفَرَاشِ وَتَسَاقُطَهُمْ فِي نَارِ الْآخِرَةِ، بِتَسَاقُطِ الْفَرَاشِ فِي نَارِ الدُّنْيَا، مَعَ حِرْصِهِمْ عَلَى الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ وَمَنْعِهِ إِيَّاهُمْ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَضَعْفُ التَّمْيِيزِ، وَحِرْصُ كُلٍّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى هَلَاكِ نَفْسِهِ"(٢).

التحليل البلاغي:

هذا الحديث يمثل طريقةً من طرائقِ التعبيرِ في البيانِ النبويِّ معتمدًا التمثيلَ لإظهارِها، وهي طريقةٌ تدعُ المجالَ للخيالِ أنْ يَهيم في أوديةِ التصوير، فبدأه – صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه– بكلمة **(مَثَلُ)** وهي من المفردات الثريَّة،

(١) صحيح مسلم [كتاب: الفضائل، باب: شَفَقَتِهِ-□-عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ]، رقم[٢٢٨٤].

(٢) فتح الباري٦/٤٦٤.

فمادة الكلمة تعني: الشبه والمساوي[1]، والمثل: هو قولٌ سائرٌ شبَّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه، يقول الإمام العيني: " اعْلَم أَنَّ الْمثلَ لَهُ مَفْهُومٌ لغَوِيٌّ وَهُوَ النظير، وَمَفْهُومٌ عرفيٌّ وَهُوَ القَوْلُ السائرُ، وَمعنًى مجازيٌّ وَهُوَ الْحَالُ الغريبةُ"[2].

فيكون تقدير الكلام: مثلي أو حالي فِي دُعَائِيَ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ الْمُنْقِذِ لَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَمَثَلُ مَا تُزَيِّنُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ مِنَ التَّمَادِي عَلَى الْبَاطِلِ كَحَالِ رَجُلٍ استوقد نارًا.

ولفظ **(مَثَلُ)** في قوله- ﷺ-: **(كَمَثَلِ رَجُلٍ)** ليس أداة تشبيهٍ، وإنما هو بمعنى الحال والصفة، فالأداةُ هي الكاف، والجمع بينهما على تشبيهِ الهيئاتِ والأحوالِ تمثيلًا؛ إذ لو دخلتِ الكافُ على **(رَجُلٍ)** لتُوُهِّمَ بادئَ الرأي مشبهًا به أفرادًا[3].

والتمثيل بـ**(رَجُلٍ)** لإفادةِ الشيوعِ، وعدم القصد إلى رجلٍ بعينه، ولأن المقام لضرب المثل، فالمقام لا يتطلب تحديدًا، وإنما العبرةُ بما يرمي إليه ضربُ المثلِ.

ثم يستثير النبي- ﷺ- مخيلة المخاطب البصرية، بقوله: (استوقد نارًا) بما تحمله من حركة، ولون، وضوء، كما أن التعبير بالفعل(استوقد) يحمل في طياته مدى الكدّ والجهد الذي بذله الرجل في إيقاد النار، وكم أنه لاقى من العناء وسعى في إحضار المعدات اللازمة ليشبّ لهيبها، ويشتد ضوؤها، فزيادة الهمزة والسين والتاء في مبنى الكلمة قد أوحت بهذه المعاني، وكما قيل: كل

(١) أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، مادة (مثل).

(٢) عمدة القاري، ١٤/٢.

(٣) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ كمال عز الدين السيد، صـ١٦٣، ط١، دار اقرأ، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى؛ ولذا فهناك" فرقٌ بين المعنى الذي تأخذُهُ من لفظٍ تسمعُه الآذانُ، والمعنى الذي تأخذه من صورةٍ تراها العيونُ"(١).

ثم إن مجيء لفظ (نارًا) نكرة؛ للتهويل من شأنها والدلالة على أنها نارٌ عظيمة، هائلة، شديدة اللهب، وبما أن هذه النار قد أُوقِدت واشتعلت، كان طبعيًّا أن تُنير وتُضيء كلَّ شيء حولها، وهذا ما دلّت عليه الفاء بومضتها السريعة ولمحتها الخاطفة بما تحمله من معنى الترتيب والتعقيب بلا مهلة في قوله: **(فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا)**.

وعندما نتأمل كل كلمة وكل تعبير من هذا البيان النبوي العالي، نجد تحتها من المعاني المخبوءة التي تستنطقها النفس والشعور، فهذه النار التي بذل صاحبها جهدًا مضنيًا في إيقادها، أن يكون جزاء جهده وتعبه نارًا هائلة، مشتعلة أتم ما يكون الاشتعال؛ لذا نجد الألفاظ والمعاني يسلم بعضها بعضا، فكان جزاء هذا الكدّ أن جاء البيان النبوي معبرًا عن هذا بلفظة (أضاءت)، ولم يقل(أنارت)؛ للدلالة على ذاتية الضوء، فضوؤها نابع منها غير مستمد من غيرها، علاوة على فرط إنارتها وتوهجها، فالإضاءة شملت كل الأماكن والأشياء التي حولها، فهي لم تترك شيئًا- صغيرًا أو كبيرًا- أتت عليه إلا أظهرته وأبانته، فكان ضياؤها لما حولها منارة تنير الطريق للسالكين، وتهديهم إلى ضالتهم آمنين مطمئنين.

ولا يخفى على ذي بصيرة، أنَّ ألفاظ صورة ضرب المثل هذا قد استمدها الرسول -ﷺ- من كلام ربه-عزَّ وجلَّ-، في قوله-تعالى-: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧]، فكلامه -ﷺ- ما هو إلا وحي يوحى، وبذلك تزداد الصورة التمثيلية تأكيدًا، وتقريرًا في النفوس، وإقناعًا للعقول.

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول، د/ محمد محمد أبو موسى، صـ١٨٣، ط٢، مكتبة وهبة- القاهرة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

وقد صاغ النبي–ﷺ– هذا التمثيل في قالب أسلوب الشرط بـ(لما)، وذلك لما يتمتع به هذا الأسلوب من ربط بين أجزاء الكلام، هذا فضلا عما يحققه أسلوب الشرط من تماسك لبنات الحديث وإخراجه في صورة قوية الحبك، متينة السبك، فأسلوب الشرط "بطبيعته يمزج بين المعاني، ويربط بينها، ويجعل الجمل في دلالته بمنزلة المفردات في الجمل غير الشرطية "[1]، وعندما ذُكِرت جملة فعل الشرط(**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا**) تشوقت النفس وتطلعت إلى معرفة الجواب، وقد تعاضد في إجلاء هذا التشويق التعبير بـ(ما) الموصولة، بما فيها من عمومٍ وشمولٍ، تذهب معها النفس كلَّ مذهب؛ إذ تحدث ضربًا من التشويق يحثه على الإصغاء إلى ما يأتي بعد هذا الأسلوب، ثم تأتي جملة جواب الشرط في قوله–ﷺ–:(**جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا**) فيتمكن في النفس فضل تمكن؛ وذلك لأن الشيء إذا جاء بعد تشوقٍ وإثارةٍ وقع في النفس موقع الماء من ذي الغُلةِ الصَّادي.

وبمجرد انتشار ضوء النار بدأت الفراش والحشرات بالتساقط فيها تباعًا؛ معبرًا عن هذا المعنى بالفعل(جعل) الذي يدل على الشروع في العمل والبدء فيه، وفي اختيار لفظ (الفراش) دلالةٌ على كثرته وانتشاره، وسرعة إجابة الداعي المتمثل في ضوء النار، علاوة على ما يتصف به من ضعفٍ ووهنٍ، وسرعة سقوطٍ؛ مما يوحي بطيشه وحمقه وجهله، فـ" الْفَرَاشَ يَقْتَحِمُ النَّارَ، لَا لِيَهْلِكَ فِيهَا، بَلْ لِمَا يُعْجِبُهُ مِنَ الضِّيَاء، وَقِيلَ: إِنَّهَا تَتَضَرَّرُ بِشِدَّةِ النُّورِ فَتَقْصِدُ إِطْفَاءَهُ، فَلِشِدَّةِ جَهْلِهَا تُوَرِّطُ نَفْسَهَا فِيمَا لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَيْهِ"[2].

وقد عطف النبي–ﷺ– على الفراش الدَّواب مشيرًا إليها بقوله: (**وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ**)؛ ليدل على حقارتها، ودنو منزلتها، ثم وصفها بالموصول (**الَّتِي فِي النَّارِ**)، ليؤكد على أن هذه عادتها وديدنها الغالبة عليها

(١) دراسة في البلاغة والشعر، د/محمد أبو موسى: ١٩٩، مكتبة وهبة – ط ١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
(٢) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٦/٤٦٤.

إذا أوقدت نارًا وقعت فيها، دون تروٍّ أو تمهلٍ، وقد تعاضد في الكشف عن هذا المعنى مجيء جملة **(يَقَعْنَ فِيهَا)** خبرًا لفعل الشروع**(جَعَلَ)**؛ لتدل على الاستسلام التَّام، وعدم النظر إلى عواقب السقوط الوخيمة التي تودي بها إلى الهلاك والردى.

فلما كان هذا حال الفراش والدَّواب، أسرع الرجل المستوقد في إنقاذهن، بشروعٍ يقابل شروعهن، وذلك في قوله: **(وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ)**؛ لشدة خوفه عليهم من سوء مصيرهم، فكان حال الرجل معهم أنه يمنعهم ويصدهم بقوة عن الوقوع في النار، دلَّ على ذلك لفظة**(يَحْجُزُهُنَّ)**، فالرجل مصرٌّ على إنقاذهم، ولم يخالجه أدنى شعور باليأس، بل إنه يجدد إنقاذه لهم مرة بعد أخرى، بدليل قوله:**(يَغْلِبْنَهُ)** فالغلبة عادة ما تكون بعد إفراغ كلّ محاولات الجهد، لكنَّ الفراش والدّواب يأبَيْنَ إلا أن يغلب هذا الرجل بإقحام أنفسهن في النار بغتة؛ لأن "التَّقَحُّمُ: هُوَ الدُّخُولُ فِي الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، وَيُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْهَلَاكِ وَإِلْقَاءِ النَّفْسِ فِي الْهَلَاكِ"(١).

ويُلحظ في إيثار التعبير بالأفعال المضارعة(يقعن، يَحْجُزُهُنَّ، يَغْلِبْنَهُ، يَتَقَحَّمْنَ) استحضارٌ لصورة هذا الصنيع الواقع من الفراش والدواب مع الرجل المستوقد، كما يكشف عن تجدُّدِ حدوثِ هذه الأفعال مِنْهُنَّ بكثرةٍ، واستمرارِ ذلك منهُنَّ، وهذا إنَّما يدلُّ على أن ديدن الفراش والدواب هو السقوط وإقحام أنفسهن في الهاوية، ودأب هذا الرجل المستوقد منعهن عن فعل ذلك.

ثم بعد أن صوّر النبي–ﷺ– لأصحابه حال هذا الرجل المستوقد مع الفراش والدواب، والتي مثّل بها على نفسه، قال:**(فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ)** أي: إن حال ذلك الرجل المستوقد الذي يحاول جاهدًا منع تلك الحشرات من الوقوع في النار، لكنهن يأبين إلا الوقوع فيها، كحالي مع أمتي، أدعوهم إلى النجاة من النار، وعدم الانغماس في الشهوات، والبعد عن المعاصي، إلا أنهم مصرون

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن علي بن محمد الملا الهروي القاري، ٢٣٢/١، ط١، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

على الانغماس فيها، ببعدهم عن الأوامر والنواهي الشرعية، والاغترار بالدنيا وزينتها، مؤكدًا كلامه–ﷺ– بتكرار لفظ (مثل) واسم الإشارة (ذلك)الموضوع للبعيد المتصل بضمير الجماعة، الذي يدل ببعده على عظم الأمر وهوله وخطورته.

وفي فائدة ضربِ المثلِ، يقول الإمامُ ابنُ القيم: وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس؛" لِتَقْرِيبِ الْمُرَادِ، وَتَفْهِيمِ الْمَعْنَى، وَإِيصَالِهِ إِلَى ذِهْنِ السَّامِعِ، وَإِحْضَارِهِ فِي نَفْسِهِ بِصُورَةِ الْمِثَالِ الَّذِي مَثَّلَ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى تَعَقُّلِهِ وَفَهْمِهِ وَضَبْطِهِ وَاسْتِحْضَارِهِ لَهُ بِاسْتِحْضَارِ نَظِيرِهِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ تَأْنَسُ بِالنَّظَائِرِ وَالْأَشْبَاهِ الْأُنْسَ التَّامَّ، وَتَنْفِرُ مِنْ الْغُرْبَةِ وَالْوَحْدَةِ وَعَدَمِ النَّظِيرِ ؛ فَالْأَمْثَالُ شَوَاهِدُ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَهِيَ خَاصَّةُ الْعَقْلِ وَلُبُّهُ وَثَمَرَتُهُ "(١).

ثم تتجلى رحمة النبي–ﷺ–وشفقته بأمته من خلال تلك الصورة الرائعة، التي برزت في مَعْرِض الالتفات من الغيبة في قوله: (كمثل رجلٍ) إلى الخطاب في قوله:(أنا آخذ بحجزكم) الذي يعمل بدوره على لفت انتباه الحاضرين، وشحذ أذهانهم، ليستخلصوا العبرة والموعظة من تلك الصورة، ويعملوا على تحكيم عقولهم لا أهوائهم.

وفي تقديم ضمير التكلم(أنا) على الفعل(آخذ) تأكيدٌ على أن هذا الفعل خاص به–ﷺ– وحده دون غيره، كما أن التعبير باسم الفاعل(آخذ) دلالة على أن هذه صفة لازمة للنبي–ﷺ– وأنه مستمرٌ في نصحه وتوجيهه لأمته–ﷺ– وردهم عن غيهم، حتى بعد وفاته، يظلّ يردهم بالوحي (القرآن والسنة)، فهما باقيان خالدان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي التعبير بلفظ (حجز) دلالةٌ واضحةٌ على رغبته –ﷺ– الشديدة في إنقاذ أمته، ونجاتها من المهالك، والوقوع في المعاصي والآثام، وخصَّ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ١٨٣/١، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١١هـ– ١٩٩١م.

الحاجز في الإنقاذ من النار؛ "**لِأَنَّ أَخْذَ الْوَسَطِ أَقْوَى وَأَوْثَقُ مِنَ الْأَخْذِ بِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ فِي التَّبْعِيدِ**"(١).

ثم بعد أنَّ مثَّل لهم النبي-ﷺ- حرصه على أمته بذلك التصوير الحركي الماثل في هيئة الاستعارة التمثيلية، فِي قَوْلِهِ: (آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ)؛ حيثُ مَثَّلَتْ حَالَهُ-ﷺ- فِي مَنْعِ الْأُمَّةِ عَنِ الْهَلَاكِ، بِحَالِ رَجُلٍ آخِذٍ بِحُجْزَةِ صَاحِبِهِ الَّذِي يَهْوِي فِي قَعْرِ بِئْرٍ مُرْدِيَةٍ(٢)؛ لم يكتفِ-ﷺ- بهذا التمثيل الحركي، بل عضَّد ذلك وقوَّاه بالصوت الكامن في طلبه المتكرر لهم بقوله: **(هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ)** معبرًا باسم فعل الأمر، وهو من أرقى صيغِ فعلِ الأمرِ وأخفِّها حدَّةً وشدَّةً من الآمرِ على المأمورِ به، وهو أدعى للتلطُّفِ ممَّا لو استعمل فعلَ الأمرِ الصريح، وفي التكرار زيادةُ اهتمامٍ وحرصٌ شديدٌ منه-ﷺ- على أمته، وخوفه عليهم من النار، والمعنى: أَسْرِعُوا إِلَيَّ، وَأَبْعِدُوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ النَّارِ.

ولكن لجهل الأمة وعدم اكتراثها لحرص النبي-ﷺ- وشفقته عليهم، وَتَعَدِّيهِمْ حُدُودَ اللَّهِ وَحِرْصِهِمْ عَلَى اللَّذَّاتِ، ولكونهم يغلبون رسول-ﷺ- ويتفلتون من يديه؛ كانت الغلبة مسببة عن الأخذ، وهو ما دلت عليه الفاء في قوله: **(فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا)**؛ مما يدل على شدة تمسكه-ﷺ- بهم، وإشفاقه عليهم، ولكنهم يأبون إلا أن يقحموا أنفسهم في النار، بتركهم الأوامر وفعل النواهي، ولفظ (تقحَّمون) وما فيه من تشديد الحاء، يدل على إصرارهم، والإلقاء بأنفسهم من غير تفكُّرٍ ورويَّة، وذلك لشدة جهلهم، وعمى بصيرتهم، وكما قال – عزَّ وجلَّ-: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) مرقاة المفاتيح١/٢٣٢.

(٢) ينظر: السابق،١/٢٣٣.

ولما كان الغرضُ من إيقاد النار هو الإنارة، والاهتداء في السير، والاستدفاء، إلا أن الفراش لجهله جعله سببًا لهلاكه، كذلك شأن وحال أمة النبي–ﷺ– في الأوامر والنواهي التي جاء بها النبي لتكون سببًا في إنقاذهم من النار، ولكنهم بسبب جهلهم جعلوها سببًا في هلاكهم، "وَلَكِنَّ جَهْلَ الْآدَمِيِّ أَشَدُّ مِنْ جَهْلِ الْفَرَاشِ؛ لِأَنَّهَا بِاغْتِرَارِهَا بِظَوَاهِرِ الضَّوْءِ إِذَا احْتَرَقَتِ انْتَهَى عَذَابُهَا فِي الْحَالِ، وَالْآدَمِيُّ يَبْقَى فِي النَّارِ مُدَّةً طَوِيلَةً أَوْ أَبَدًا"(١)، ويا بُعد ما بين الجهلين!.

فما أجمل البيان النبوي وأعظمه في اتخاذه التمثيل وسيلة من وسائل إقناع الأمة بأنها على خطرٍ عظيمٍ، في مخالفتها لهدي النبي–ﷺ–، وانجرافها وراء شهواتها بالبعد عن الأوامر الشرعية، وفعل المنكرات، كما بيَّن حال النبي–ﷺ– مع أمته، وإظهار حرصه وشفقته عليهم، وحزنه الواضح على حال من يخالف دينه وهديه، وصدق الله حيث يقول: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فكان "الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ الْمَثَلِ أَنَّهُ يُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ مَا لَا يُؤَثِّرُهُ وَصْفُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ تَشْبِيهُ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ، وَالْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ، فَيَتَأَكَّدُ الْوُقُوفُ عَلَى مَاهِيَّتِهِ، وَيَصِيرُ الْحِسُّ مُطَابِقًا لِلْعَقْلِ"(٢).

***

(١) فتح الباري ٦/٤٦٤.

(٢) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل،١/١٢٢، دار الفكر– بيروت، ١٤٢٠هـ.

خاتمة

الحمدُ للهِ الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحاتِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خَاتَمِ الرسالات، سيدنا محمد–ﷺ–، وعلى آلهِ وصحبِهِ ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

ويَعـــْـــــدُ،،،

فمن خلال المعايشة مع كلام المصطفى–ﷺ– وتحليل أساليبه في الأحاديث الواردة في هذا البحث، توصل البحث إلى عدة نتائج، كان منها الآتي:

- أنَّ القياسَ والتمثيلَ من أساليبِ الاحتجاجِ العقليِّ غير المباشرة في الوصول إلى المراد.
- عالج النبي–ﷺ– بواسطة القياس إصلاح معتقدات العباد، وتقويم خطئهم، من نفس عناصر البيئة المحيطة بهم.
- القياس طريق من طرق الوصول إلى الحقائق، والالتزام بأحكام العقل، ورفض التبعية والهوى.
- تعامل الرسول–ﷺ– مع المخاطبين من خلال استخدام القياس العقلي على أنهم طرفٌ فاعلٌ مشاركٌ في إصدار الحكم؛ ليتم الإقناع دون تردد.
- التمثيل من الأساليب الإقناعية التي تقرّب المعاني وتوضحها، وقد وظفها النبي –ﷺ– بدقة عالية، وصياغة محكمة في التقريب بين الحقائق.
- المعاني التي عبر عنها النبي–ﷺ– معاني عقلية مجردة؛ لذا نقلها الرسول من المعقول إلى التعبير المصوّر المشاهد المحسوس عن طريق التمثيل؛ ليكون أقوى في الإقناع والتأثير.
- القياس والتمثيل يهدفان إلى الإقناع، وإلى بيان الحقيقة، وتعديل السلوك، وتغيير المفاهيم، وترسيخ القيم الإيمانية.
- رفق النبي–ﷺ– بالمتلقين، ورحمته وتلطفه في الخطاب معهم، رغم امتلاكه السلطة التشريعية في حملهم على الإذعان بالأساليب الطلبية المباشرة، إلا أنه اعتمد القياس والتمثيل أسلوبًا إقناعيًّا؛ لتقبل النفس البشرية له، مما يحملهم على سرعة الامتثال والانقياد.

المصادر والمراجع

- أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق:محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
- الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب العربية، د/محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢- ١٩٨٠ م.
- الاستفهام في الصحيحين خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية، د/عبد العزيز بن صالح العمار، ط١، الرياض، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، ١٤٢٠هـ.
- البيان والتبيين، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- التعريفات، علي بن محمد بن الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبد العظيم المطعني، ط٣، مكتبة وهبة- القاهرة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ كمال عز الدين السيد، ط١، دار اقرأ، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- الحوار في الحديث النبوي، تراكيبه وصوره، د/ عيد محمد شبايك، ط١، دار حراء- القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

- الروض الداني إلى المعجم الصغير، للطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، ط١، المكتب الإسلامي، دار عمار- عمان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- اللمع في أصول الفقه، لأبي إسحاق الشيرازي، ط٢، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٣١٢هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٢م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ: عبد المتعال الصعيدي، ط١٧، مكتبة الآداب، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، د/ زينب عبد اللطيف كردي، صـ١٧ وما بعدها، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٣٠-١٤٣١هـ.
- بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، د/ ناصر راضي الزهري، ط١، دار البصائر، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- تاج العروس، للزبيدي، دار الهدية، د.ت.
- تأملات في جماليات النص القرآني، د/ أحمد درويش، دار نهضة مصر، ٢٠١١م.
- تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل، لابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران - محمد عزير شمس، ط١، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ.
- دراسة في البلاغة والشعر، د/محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط٣، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- سبل الاستنباط من الكتاب والسنة - دراسة بيانية ناقدة، د/ محمود توفيق محمد سعد، ط١، مطبعة الأمانة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
- سبل السلام، محمد بن إسماعيل الصنعاني، دار الحديث، د. ت.
- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول، د/ محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة- القاهرة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي؛ لأبي العلاء المعري، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، ط٢، دار المعارف، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة- مصر، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د.ت.
- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط٤، دار القلم- دمشق، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني ٤٢٦/٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفصل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م.

- كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
- لسان العرب، لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، ط٣، دار صادر– بيروت، ١٤١٤هـ.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن علي بن محمد الملا الهروي القاري، ط١، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر،١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، لجمال الدين ابن النقيب، تحقيق: د/ زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي – القاهرة.
- وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص، أحمد حسن الزيات، ط٦، مطبعة الرسالة – مكتبة نهضة مصر– الفجالة،١٩٦٣م.

***